المقاومة الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة
ثورة البَشَرات الثانية (976 هـ/ 1568م) أنموذجًا

ا. أمل مصطفى المصدور
قسم التاريخ–جامعة بنغازي
amel.amasdor@uob.edu.ly

المستخلص:

يتطرق البحث إلى مرحلة مأساوية عاشها عرب الأندلس، بعد سقوط غرناطة وتسليمها من قبل الملك عبد الله الصغير سنة 1492م إلى الملك فيرناندو الخامس، فدخل الأندلس والعرب المسلمون فترة مظلمة، ربما يتحمل وزرها ذاك الملك؛ لتتحول جنة الأندلس إلى جحيم إسبانيا، ومنها يتحول العرب المسلمون إلى موريسكيين، ويُجردون من جميع أراضيهم وأملاكهم، ويفرض التنصير القسري على تلك الفئة التي صعب عليها الهجرة مع أوائل المهاجرين إلى العدوة المغربية.

إن الموريسكيين وطردهم بعد سقوط غرناطة وتدهور أحوالهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية استمرت عدة قرون من الزمن؛ لأن طمس معالم أمة ترغب في الحياة ومتمسكة بدينها كان من الصعوبات التي واجهتها إسبانيا النصرانية.

إن الأمة الإسلامية الإسبانية التي أطلق عليها اسم الموريسكيين كان لها دورٌ مهمٌ في إسبانيا قبل أن تطرد نهائيا، تحملت أهوال تعصب الكنسية ورجال الدين ودواوين محاكم التفتيش التي وقفت لهم بالمرصاد، ولم تكن تنظر إليهم بارتياح؛ نظرًا لتشبثهم بإسلامهم، وإن كانوا قد تنصروا تحت الضغط، ولكن في مظهرهم، فقد قامت محاكم التفتيش بتجريدهم من أسمائهم العربية ولغتهم العربية وملابسهم وعاداتهم، والأدهى محاربتهم في عقيدتهم الإسلامية بحرق المصاحف والكتب العربية والمخطوطات الثمينة، وجعلت منهم جواسيس على بيوتهم وأقاربهم، ومزقت اللحمة الدينية والقومية لدى عرب الأندلس، فوشى الابن على أبيه، والبنت على أمها، والزوجة على زوجها لدى محاكم التفتيش، فما كان منهم إلا الانتفاضة، فاشتعلت الثورات الواحدة تلو الأخرى، منها انتفاضة البيازين في غرناطة سنة 1499م التي انتقلت إلى ثورة البشرات الأولى والثانية (1568م/1570م)؛ انتقاما لانتهاكات الكنسية ومحاكم التفتيش، ولرفع الظلم أو الاستشهاد بدل الموت البطيء، فسطر المسلمون صفحات مشرقة في الجهاد، وضربوا أروع الأمثلة في المثابرة والجهاد، فقد جردت إسبانيا كافة مدنها وجيوشها، واستغاثت بأوربا للقضاء على فئة مضطهدة في شعاب الجبال، معدومة الحيلة، قابضة على دينها كالقابض على جمرة من لهب، فعملت فيهم تلك الجيوش قتلا وتشريدًا من ذبح وبقر للبطون وتهجير تحت ظروف مأساوية لم يبلغ بعضهم إلى موطنهم الجديد من الجوع والبرد والتعذيب، ففي حقيقة الأمر إن قسوة إسبانيا تجلت في تلك الفترة بوضوح من تجرد من الإنسانية والقيم الأخلاقية.

عند الكتابة عن تلك الفترة من الصعب العثور على وثائق عربية، ولعل السبب عدم اهتمامنا بالوثائق، فاعتُمِدَ على الوثائق القشتالية!

الكلمات مفتاحية: معاناة مسلمي الأندلس بعد تسليمها، المعاهدات ونقصها، الثورات في جبال البشرات ، التعذيب والتنكيل من قبل محاكم التفتيش ، التهجير ألقصري لمسلمي الأندلس

Islamic Resistance in Andalusia after the fall of Granada: The Second rebellion of the Alpujarras (976AH \ 1568AD) as a model

Abstract:

The research talks about a tragic period experienced by the Arabs of Andalusia, after the fall of Granada and handed over by King Abu Abdullah Mohammed II (1460 - 1527 BC) in (897 AH, 25/11/1491 BC) and seen on the ground in 02-01-1492 BC) to King Fernando V - the most well known king of Spain and known as the Catholic King- and Queen Isabella the rulers of Castile and Lyon. Andalusian and the Muslim Arabs entered a dark period and perhaps that king was the most responsible for turning the paradise of Andalusia into the hell of Spain. Due to this, the Muslim Arabs turned to be Moorish and were stripped of all their lands, and their properties were confiscated. Christianization after that was imposed on those people which was difficult for them to go with the first immigrants to Morocco the enemy.

The Moorish and their expulsion after the fall of Granada and the deterioration of their political, social and economic conditions lasted for centuries because the obliteration of a nation that wanted to live and adhered to its religion was one of the difficulties faced by the Christian Spain.

The Spanish Islamic nation -called the Moors- which played an important role in Spain before it was finally expelled, endured the horrors of ecclesiastical fanaticism, clerics and inquisition courts, all of those were on the lookout for suspicion for being clinging to the Islamic practices. Even though they had been Christianized by force, they continued being Muslims by heart to embody what Almighty said, "except for one who is forced [to renounce his religion] while his heart is secure in faith". The Inquisition had stripped them of their Arabic names, Arabic language, clothes, customs, and the worst of them was to fight their Islamic faith by burning the Korans, Arabic books and precious manuscripts, and made them spies on their homes and relatives. The religious and national cohesion of the Arabs of Al-Andalus, Fushi Jr., was torn; where the sons and daughters gave their parents away and so did the wives to sell them out to Inquisition so easily. Such things made them to rise up against the situation. The revolutions were ignited one by another including the revolution of the Bayazine in Granada in 1499, which moved to inspire the rebellion of the Alpujarras (1568/1570 AD) in retaliation for the violations of the Church and the Inquisition, and to lift injustice or martyrdom instead of slow death. The Muslims wrote bright pages in jihad and heroisms, and hit the finest examples in perseverance and jihad. Spain stripped all its cities and armies and appealed to Europe for eliminating a persecuted group in the mountains, a group that insisted with pain holding on to its religion whatever this would cost them. These brutal armies were killing and displacing them under tragic circumstances and some of them could not reach their new home because of hunger, cold and torture. In fact, the cruelty of Spain manifested in that period clearly where it was stripped of humanity and moral values.

When writing about that period, it is difficult to find Arabic resources and perhaps our lack of interest in resources and documents is the reason behind this, where the Castilian resources were relied upon.

Key words: The suffer experienced by the Muslims of Andalusia after the full handover of Granada and Andalusia by Abdullah Jr., treaties and violating them, uprisings in Alpujarras mountains, torture and abuse by the Inquisition, forced displacement of the Muslims of Andalusia.

الموقع الجغرافي للبَشَرات:

البشرات بالإسبانية La Alpujarra، وتذكر في المصادر التاريخية باسم Alpuxarras وهي منطقة تاريخية غير ساحلية في جنوب إسبانيا، تقع جنوب جبال سيرانيفادا قرب غرناطة بمنطقة الأندلس ذاتية الحكم، ويقع القسم الغربي منها في مقاطعة غرناطة، والقسم الشرقي منها في مقاطعة المرية، تتكون هذه المنطقة الجبلية بشكل أساسي من وديان تنحدر بشدة من تلال سيرانيفادا في الشمال إلى جبال الميخارا والكونترابييسا والغادور التي تفصلها عن ساحل البحر المتوسط جنوبًا.

تعد هذه المنطقة واحدة من أروع المناطق الطبيعية في الأندلس، وتعد وديان غرب البشرات من أخصب أراضي إسبانيا؛ نظرًا لمناخها الدافئ ووفرة مائها الذي يأتي من عدة أنهار تنحدر من جبال نيفادا، غير أن شدة انحدار أرضها تجعل زراعتها صعبة إلا في حقول صغيرة، وعلى صغر مساحتها تحوي أنواعًا كثيرةً من أشجار الفواكه، مثل: الحمضيات بأنواعها، والكروم، والعنب، والتين، واللوز، أما البشرات الشرقية، التي تقع في مقاطعة المرية على الرغم من قلة خصوبتها فإن طبيعتها ساحرة، وأشهر القرى التي تقع على مرتفعات البشرات، هي: لانخارون، وأورخيفا، وأوغيخار، وأندرش، وبرجة، وتريبيليث، التي تقع كنيستها على ارتفاع 1476مترًا من مستوى سطح البحر، وهي أعلى مدن إسبانيا، أما مناطقها السياحية فهي القرى البيضاء الثلاث: بامبانييرا، وبوبيون، وكابيلييرا، التي تقع في مضيق نهر بوكييرا، وقد استوطن البشرات الشعوب الأيبيرية والإمبراطورية الرومانية والقوط الغربيون، وفي سنة 92هـ 711م فتح المسلمون الجزيرة الأيبيرية، وأصبحت تحت نفوذهم طيلة 800 عام، ولكن القشتاليين استولوا على جميع الأراضي المملوكة للمسلمين في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، ولم يبقَ في أيديهم سوى مدينة غرناطة، التي كانت قبلة لجميع نازحي مسلمي الأندلس بعد الاستيلاء على مدنهم، وتمسّك مسلمو غرناطة بدينهم وعاداتهم ولغتهم ولباسهم حتى بعد سقوط غرناطة سنة 1492م بمائة وخمسين عامًا. (ويكيبيديا).

إن العرب لم يخرجوا من الأندلس في عام (878هـ/1492م) يوم سقوط غرناطة، حين دفع القوط الإسبان بقاياهم عنها بتلك الوحشية والدموية. وإنما خرجوا منها عندما بدأ العرب يتنازعون فيما بينهم في عام 400هـ /1010م، فبدأت مرحلة الانقسامات والولاءات، والبحث عن المصالح الخاصة دون العامة، فكانت النتيجة قيام ممالك معادية للإسلام والمسلمين، مثل: قشتالة وليون باحتلال أجزاء من الأندلس في عام 1085م، حيث استولى الفونسو السادس ملك قشتالة وليون، على أكبر ممالك الطوائف وهي طليطلة،

ثم بدأت تتساقط المدن الإندلسية تباعًا، منها: طرطوشة، وقلعة رباح، وسقطت قرطبة عاصمة الأندلس كلها، ثم بلنسية، ومرسية، وسقطت إشبيلية في عام 1248م، وتبعتها شذونة وقادش، وقد حاول المسلمون الدفاع عن الحصون الإسلامية، وضرب المدافعون مثلاً رائعًا في الشجاعة والاستبسال، وسجل سقوط غرناطة بداية لعصر جديد، يتميز بالفوضى وعدم توازن القوى الإسلامية والمسيحية في حروبهم، وقد منح الموريسكيون لتاريخ الإنسانية أروع أمثله في البطولة دفاعًا عن معتقداتهم الدينية، ووقفوا سدًّا منيعًا أمام سياسة الاندماج والتعميد القسري، فمأساة الطرد الجماعي وغير الإنساني للموريسكيين، تشهد أنه لم يكن مجرد طرد وتهجير حقيقي لمجموعة بشرية، ولكنه في واقع الأمر إبادة جماعية، فقد مارست محاكم دواوين التفتيش قمعًا حقيقيًّا، إن ما حل بالموريسكيين بعد سقوط غرناطة وحتى الطرد النهائي، يعد أبشع وأخطر اضطهاد عرفه التاريخ الأوربي، وقد ركزت على ثورة من الثورات التي قامت ضد تعسف الإسبان ضد مسلمي الأندلس، فقد كانت هذه الثورات المتتالية نتيجة طبيعية ضد التعصب الديني والاضطهاد العرقي.

قبل الحديث عن تلك الثورة والمقاومة التي بدأها الموريسكيون، لابد من العودة إلى زمن ليس ببعيد من تلك الحقبة المأساوية، ذلك الزمن الذي وقعت فيه مملكة غرناطة تحت نير الحكم الإسباني، وتوقيع معاهدة المهانة والذل، وتسليم المدينة وقصر الحمراء سنة (897هـ/1492م) إلى الملكين الإسبانيين.

مملكة غرناطة:

كانت غرناطة (إغرناطة) في الأصل –قبل الفتح الإسلامي للأندلس– مدينة صغيرة وإحدى مدن ألبيرة عاصمة الولاية أو الكورة التي تعرف بالاسم نفسه، وهي مدينة قديمة، وتسمى –أيضا– ببلد اليهود لقدم اليهود بهذه المدينة، وبمرور الزمن حلت مدينة غرناطة المعروفة اليوم محلها، ويعتبر أول من بناها هم العرب عند فتحها، حيث أطلقوا عليها حصن الرمان، وثاني بُناتها هم البربر بنو زيري في عهد باديس بن حبوس الذي اتخذها ملكًا، وأطلق عليها اسم الغزالة، يدعا حصن الرمان بالقصبة القديمة، وما أنشئ في عهد بن باديس بالقصبة الجديدة، وهناك قصة تروى أن سيدة تخبئ طعامها في كهف أو غار تسمى ناطة فسمي المكان باسمها وأصبح المكان يدعا غرناطة (لعناني، د.ت) حتى غدت قاعدة إحدى إمارات الطوائف (بنو الأحمر) ثم عاصمة مملكتهم، وتقع غرناطة على وادي نهر شنيل أحد فروع الوادي الكبير، وشملت ثلاث ولايات كبيرة: ولاية غرناطة في الوسط وفيها العاصمة غرناطة، وولاية المرية في الشرق، وولاية مالقة في الجنوب والغرب، كما كانت تسمى دمشق؛ لأن جند الشام نزلوها عند الفتح، وقيل لأنها

تشبه دمشق في كثرة أشجارها وأنهارها وحسنها، وهي من أقدم مدن الأندلس، وقال الوزير ابن الحمار الغرناطي أبو عامر في وصف جمال الأندلس:

لاحَتْ قُراها بين خُضرة أيكها * كالدُر بين زَبَرجد مكنون

قد مرت الدولة الإسلامية في غرناطة خلال القرن الخامس عشر الميلادي، بأحداث سياسية جعلت المحافظة على وجودها الذي دام قرابة قرنين ونصف من الزمان (635هـ /900هـ) شبه مستحيل، فحالة الانقسام والخلافات الداخلية، والمنافسة بين الطامعين في حكم البلاد والتمرد على السلطة من جهة، وتربص الأسبان بتلك المملكة من جهة أخرى، وعلم الصليبيون أن نجاح عملياتهم العسكرية مبني على الملوك المسلمين، وعلى الفتن التي تنميها الأحقاد، وكانت الحلقة الأضعف ملك غرناطة عبد الله الصغير، ويسمى في المصادر الأسبانية (ببدول) (ايرفنغ، 2000م)، واتصلوا به عارضين عليه مساعدتهم له للقضاء على أعدائه والمدافعة عن أراضيه، والغريب أن أعداءه هم أبناء عمومته وأبناء دينه وجلدته، ومن أحد الشروط التي طالب بها الإسبان من عبد الله الصغير استسلام المدن التي كانت تحت حكم عمه أبي عبد الله الزَّغَل، وتعهد فرناندو في حالة موافقته إغراق ملك غرناطة بالثروات والهدايا، وضمان أمنه وسلامته؛ كونه تابعًا من أتباع الإسبان، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين } **(الآية 5) المائدة.**

بما أن عبد الله الصغير كان صغيرًا بأفعاله وخيانته اسمًا على مسمى؛ لأن قامات الرجال تعلو بأفعالها وأمجادها، كان معمي البصيرة ولا قوة له، فقد خضع لذلك الإذلال ووقّع على معاهدة السلام أو بالأحرى اتفاقية الذل والمهانة بلا قيد ولا شرط، ويبدو أنه لم يتبادر إلى ذهنه أنهم سوف يقومون بتجريده من أراضيه كما فعلوا مع غيره.

كان شعب أبي عبد الله الزَّغَل يحقد على الملك عبد الله الصغير يومًا بعد يوم، ويكرهه متهمين إياه بالعميل الخائن بالنظر إلى معاهدته مع الصليبين، ولو تبادر إلى مسامعهم بالمعاهدات الأخيرة لكان قطع ملكه إربا وأحرقوه حيا، غير أنها بقيت سرية ولم يعلم بوجودها إلا السلطانة الأم والوزير موسى بن عبد الله الذي رجا الصّغير لتوقيعها، وعول المسيحيون على الخوف الذي يعيشه عبد الله الصّغير من عمه وأنصاره، فوافق على طلب فرناندو بإلهاء عمه؛ ليتمكن الإسبان من دخول بسطة والمرية ووادي آش.

وكان أبو عبد الله الزَّغَل في وادي آش عندما وصله نبأ عقد ابن أخيه معاهدات جديدة مع ملك قشتالة، وأن الأخير عازم على مساعدة الصغير لمهاجمة أراضيه مجددًا، وبعد مضي ستة أشهر على الكر والفر بين الزَّغَل والإسبان، ولما كانت قوات الزَّغَل غير كافية للدفاع عن مدينته، وبما أنه لا أمل له بوصول مساعدة من غرناطة التي باعها سيدها لهم مقابل المال والهدايا، فقد أرسل إلى عبد الله سائلاً إياه بدء المفاوضات لاستسلام المدينة بأفضل شروط يمكنه الحصول عليها، شعر شعب بسطة بالأسى والحزن، ودب في صفوفهم الرّعب واليأس، وعلت صرخات النسوة، وقرر الأمراء حضور اللقاء بين أبي عبد الله الزَّغَل وملوك قشتالة، واستقبل دون فرناندو الأمراء المسلمين بكل احترام، واضعًا شروط استسلام المرية ووادي آش، وتقرر أن يترك لأهالي المدن المستسلمة كل ممتلكاتهم وأراضيهم، وأن ينعموا بحياتهم كما كانوا في السابق، ولكن بصفتهم عبيدًا، وأن يدفعوا له الأموال، وأمست هذه الشروط معلنة بعد تسليم تلك المدن سالفة الذكر.

ولما تبادر إلى مسامع عبد الله الصغير خبر رضوخ عمه عبد الله الزغل للملك الإسباني، طار فرحًا، وظن أنه آمن النزاع وأصبح من دون منازع، وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمه الزَّغَل، لولا أن وزيره يوسف بن كماشة نبهه من غفلته، وأيقضه من نشوته، وقال: أفق فإن الزوبعة كانت في أفق واحد، فستنتقل إلى أفق آخر (دوشاتو بريان، 1925م)

أما سكان الإمارات قد ذُهلت من الاستسلام المروع لقلاعهم القوية، وبالكاد صدقوا ما حدث بجيرانهم، ولكن بعد الاتفاق الذي وقع، وجنب الناس الحرب سُرّ سكان تلك المدن؛ لأنهم لم يقعوا في نير الحروب وويلاتها، ولم يخفوا هذا الأمر، بل نصحوا سكان المدن الأخرى بالحذو مثلهم، فسارعت سيرون وتابيرنا بالاستسلام بإرادتها، وقلعة المنكب وشلوبانية الساحليتين، ووقعت هذه الأحداث كلها في عام (896هـ) خلال شهر محرم وصفر (كنده، 2014م).

حصار غرناطة وتسليمها:

قد أدرك الإسبان بعد احتلالهم لمعظم المدن الأندلسية الأخرى، أن مسألة احتلال عاصمة بني الأحمر غرناطة هي مسألة وقت لا أكثر، فبدؤوا يتحينون الفرص لذلك، وأرسلوا بطلب لحاكمها أبي عبد الله الصغير لتسليمها لهم صلحًا، فثارت ثائرة أبي عبد الله الصغير لهذا الغدر والخديعة، وعرف جسامة الخطأ وهوة المنزلق الذي انزلق فيه بتحالفه مع هذا الملك الغادر. فأظهر من الضعف قوة، وتملكه الغضب

فرفض ذلك وقرّر القتال، إذ عقد اجتماعا مع كبار رجالات الدولة، وقرّر الدفاع عن المدينة حتى الموت، وكانت الحرب سجالا بين الطرفين، وقامت عمليات حربية على مشارف المدينة استبسل فيها العرب على الرغم من محاصرتهم بجيوش معدة بشكل وافٍ.

وبعد أن أدرك الملكان الإسبانيان فرديناند وإيزابيلا صعوبة الاستيلاء على المدينة بالقوة؛ وذلك لحصانتها، ووجود معظم الجيش الإسلامي بداخلها، قررا في سنة 896هـ / 1491م حصارها وقطع جميع الإمداد عنها.

ولأهمية هذا الحصار فقد حرص الملكان فرديناند وإيزابيلا على الاشتراك مع القوات المحاصرة للمدينة المنكوبة وأهلها، ولمعرفتهم مسبقًا بطول فترة هذا الحصار، فقد أمرا ببناء مدينة تكون قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد غرناطة، وأطلقوا عليها اسم القدسية " في " أي مدينة الإيمان المقدس، قاموا ببناء مدينتهم على حساب القرى الإسلامية، حيث عمدوا إلى تخريبها وقتل مسلميها، واستعمال موادها في بناء ذلك المعسكر، وشيدوا سورًا كبيرًا أسموه شنتفي، وفي أثناء الحصار الذي طال أمده كانت تحدث مناوشات ومعارك بين الخصمين، وعلى الرغم من سقوط العديد من القتلى والجرحى، فإنها لم تكن حاسمة للطرفين، وقد اتبع المسلمون سياسة المباغتة والهجوم المفاجئ تحت جنح الليل، ونصب الكمائن للعدو؛ لتجنب المواجهة المباشرة بسبب كثرة العدو وقوته، وغنموا كثيرًا من الغنائم من الخيول والبقر والغنم وما إلى ذلك، مما ساعد في تخفيف وطأة الحصار على السكان، وتزويدهم بالمؤن حتى بلغ سعر رطل اللحم درهمًا لكثرته بسبب الغنائم، ولم يدخر المسلمون جهدًا في الدفاع عن مدينتهم وقراهم، غير أن طول مدة الحصار والنقص الحاد في الأقوات، آلت الأوضاع إلى كارثة حقيقية داخل المدينة، وقد ضيق النصارى الخناق ومصادرة السلع، وقُطعت غرناطة عما حولها تمامًا باستثناء طريق البَشَرات الجنوبية من ناحية جبل شلير، فجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة (الذنون، 1988م)، ونظرًا لعدم وصول نجدة لمسلمي تلك المدينة المنكوبة رغم صرخات الاستغاثة التي أرسلوها، فتفشت الأمراض وانتشرت المجاعة.

في هذه الأثناء وجد المسلمون وأميرهم عبد الله الصغير أنفسهم أمام خيارين، إما تسليم المدينة للنصارى، أو فناء المدينة وسكانها جوعا وهدما على يد النصارى، ومال غالبية القادة إلى الرأي الأول ألا وهو تسليم المدينة المسلمة بسكانها وحيطانها وأرضها ومساجدها، والأهم من ذلك كله أبنائها، إلا رجلا يدعى موسى بن أبي غسان، ويذكره بعض المؤرخين باسم معاذ الذي رفض ذلك التسليم وقال قولته

المشهورة: " إنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها "، ووقف وحيدًا ليقول: "من السابق لأوانه الآن الحديث عن الاستسلام، فمواردنا لازالت كافية، إذ لازال لدينا مصدر واحد للقوة، الذي به تتحول الهزائم إلى نصر، إنه الأمل! لكن كلمات معاذ أو موسى هذه لم تؤثر بالحضور؛ لأنهم فقدوا قلوبهم وجرأتهم وروحهم المعنوية، فلم يقيموا أي وزن للبطولة ولا للأبطال.

أما القائد الصنديد موسى بن أبي غسان أو معاذ كما يطلق عليه في المصادر الإسبانية، الذي روى بدمه الطاهر الزكي هضبة الحمراء المنحدرة باتجاه نهر حدارة، حيث قال: " اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى يستحيل علينا أن ننقذ غرناطة، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه. (الذنون، 1988م)

أما بقية الرجال فأصروا على تسليم المدينة بعدما أنهكتهم المجاعة، وكأن ذاك الرجل المغوار يدرك ما سوف تؤول إليه مصير الأمة الإسلامية، ولا يريد أن يلحقه عار تلك المعاهدة المشؤومة. استقبل دون فرناندو وإيزابيلا الشيخ أبو القاسم عبد الملك بكثير من الترحاب، وكانت غرناطة تنتظر بكل ترقب وقلق نتائج هذه المحادثات، وبعد عدد من الجلسات توصل أخيرا إلى أن يعود بالشروط النهائية لملوك الكاثوليك، فقد وافقا على تأخير أي هجوم على المدينة لمدة سبعين يومًا، وكان الغرض من هذا التأخير الطمع في وصول نجدة من العالم الإسلامي، وبعد هذه المدة تستسلم المدينة، أما حاليا فيجب إطلاق سراح الرهائن المسيحيين فورًا، ثم بعد انتهاء المدة يأخذ عبد الله الصغير كل حاشيته وأهل الحل والعقد في المدينة على أنفسهم يمين الولاء والطاعة للتاج المسيحي، وعلى العرب في غرناطة أن يصيروا رعايا للملوك الكاثوليك، ويظلوا في أملاكهم ويحتفظوا بسلاحهم الفردي وخيولهم، وأن تُسلَّم الأسلحة المدفعية، كما أن لهم حرية العبادة وحماية معتقداتهم الدينية بإشراف قضاتهم حسب الإسلام، لكن تحت إشراف حاكم عام يعينه الملكان، وعلى أن يخضعوا لدفع الجزية لمدة ثلاث سنوات، وبعدها يعودون إلى دفع الضرائب التي كانوا يدفعونها لمليكهم عادة.

أما الذين يرغبون بالسفر إلى أفريقيا خلال ثلاث سنوات، فيمكن أن يزودوا بجوازات مرور لأنفسهم ولأغراضهم، دون أي مقابل، (ايرفنغ، 2000م)، وعلى المدينة أن تقوم بتسليم أربعمائة رهينة، وهناك من

قال خمسمائة من خيرة عائلاتها قبل الاستسلام المحدد، يعودن إلى ذويهم بعد تسليم المدينة ومعهم الأطفال الرهائن الذين سبق أن أخذهم الملك فرديناندو، تلك الشروط التي عاد بها الوزير أبو القاسم إلى رجال المدينة أفضل ما أمكن الحصول عليه من هذه القوات الغازية.

أرسل عبد الله ما طلبه منه الملكان مع وزيره يوسف بن كماشة الرهائن وأصحبه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل الهدية، وأوضح عزم الجماعة على تسليم المدينة قبل مضي الأمد، ولكن رعاياه كانوا رافضين ذلك، وخاصة عند ظهور درويش اسمه حامد بن زارة يطوف الأسواق مناديا بالجهاد، مستنفرًا العامة إلى الدفاع قائلاً: " إنه سيرد إليهم نجدات من البَشَرات، وأن الأمل عظيم بالفرج، فثار نحو عشرين ألفا من أهل المدينة وتقلدوا أسلحتهم، وملأت الضوضاء أرجاء غرناطة، فخرج أبو عبد الله من الحمراء محفوفًا برؤساء البلد وخاطب الأمة قائلا لهم: " لا ذنب إلا علي، أنا الذي عققت والدي وجلبت الأعداء على المملكة، لكن الله قد أخذني بجرائري، وأنزل النقمة كلها على رأسي، وها أنا ذا الآن قبلت لأجلكم يا قومي، ضنا بدمائكم أن تراق، وبأطفالكم أن يموتوا جوعًا، ونسائكم وذراريكم أن تنزل فيهن معرات الحرب، وحفظًا لأموالكم وأملاككم وحريتكم وشريعتكم وديانتكم في ظل ملوك أسعد طالعًا من أبي عبد الله المشؤوم "(دوتشاتو بريان، 1925م) فأثرت رقة كلامه في خواطر القوم، فانفضوا وعادوا أدراجهم.

في الواقع هناك اتفاقيتان: سرية، وعلنية، الأولى وقعها أبو عبد الله الصغير مع الملكين على تسليم المدينة مقابل امتيازات مادية له ولحاشيته، أما الاتفاقية الثانية فهي علنية وهي محاولة للتغطية على الاتفاقية السرية ولإضفاء الشرعية على الاتفاقية السرية، وتحوي الاتفاقية السرية خمسة عشر بندًا، كلها تصب في مصلحة أبي عبد الله وحاشيته والسلطانة السيدة عائشة الحرة وزوجته ثريا، أما العلنية فتحوي سبعة وأربعين بندًا، تهتم بمصير الرعايا المسلمين، كما توجد اتفاقية ثالثة ويتضح أنها الأخيرة، وكانت بنودها ترتب عبور أبي عبد الله وحاشيته إلى المغرب بعد تنازله عن جميع ممتلكاته مقابل مبالغ مالية سنة (901هـ/ 1493م)، ولا يتسع المجال لذكر بنود تلك الاتفاقيات.

التقى أبو عبد الله بممثل الملكين وتبادلا التحية، فقال أبو عبد الله: " هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة تسلم هذه القصور باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليهما لفضائلهما وزلات المسلمين "(عنان، 1989م). وانتهى الصراع الذي بدأ عند قدم صخرة الكالبي، الذي أطلق عليها العرب صخرة الفتح أو جبل طارق في 92هـ /711م.

وسرعان ما وُضِعَ الصليب على أبراج الحمراء، وقام القساوسة باحتلال الجامع، ووضعوا الصليب في محرابه، وعلقوا النواقيس على المئذنة، ونظر أبو عبد الله الصغير على قصور الحمراء نظرة أخيرة، فعرف مدى المأساة التي وضع فيها نفسه ومدينته، فانهالت عبراته عليها، فقامت والدته الحرة عائشة تعاتبه: " ابكِ مثل النساء مُلكًا مضاعًا * لم تحافظ عليه مثل الرجال " في الواقع أعجز عن وصف رباطة جأش تلك السيدة في تعاملها مع ابنها؛ لأني لو وضعت نفسي مكانها لكنت قتلت ذاك الابن الذي دخل التاريخ من أسوأ أبوابه، وبحثت في المصادر لعلي أجد ما يبرر ذاك التساهل من تلك السيدة، فوجدت أنها كانت ضليعة في الاتفاقية السرية، حتى تنقذ ابنها من الأسر الذي وقع فيه، فعرفت أنها تحركت بدافع الأمومة، ولكن لا تعلم أنها بسبب حبها لابنها وضعته في خانة الخونة، فلا يقل حظا أسوأ من ذاك الوزير الذي سلم بغداد لهولاكو، فكان سببًا في غرق الحضارة الإسلامية في نهر دجلة، بينما تسبب الصغير في حرق حضارتنا والأندلسيين على أيدي القساوسة في النار.

في حقيقة الأمر لم تكن الدموع التي ذرفها أبو عبد الله الصغير وهو يسلم مفاتيح قصور الحمراء بغرناطة لملكي إسبانيا النصرانية هي الدموع الأخيرة في بلاد الأندلس، إذ أعقبها الكثير والكثير من الدموع والدماء.

فعلى الرغم من العهود والأيمان المغلظة التي قطعها فرناندو على نفسه، ووقع عليها في وثيقة استلام غرناطة الشهيرة، فقد تبين أن هذه الوثيقة ما هي إلا ستارٌ للغدر والخيانة وشنيع ما سيقترف بالمسلمين في الأندلس.

دخل النصارى إلى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، صعد الكاردينال إلى أحد الأبراج بالقصر ونصب فوقه صليبًا كبيرًا من الفضة، ولواء الملكية المسيحية، وما أنْ أبصرت الملكة الصليب منصوبًا فوق قصر الحمراء حتى انحنت نحو الأرض، واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها، فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية، بعد ذلك دنا أبو عبد الله الصغير من الملك فرناندو، وتهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك، لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل، شفقة عليه. فقبّل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فريناندو اليمنى وسلمه مفتاح البابين الرئيسيّين لقصور الحمراء قائلاً له: " إنهما مفتاحا هذه الجنة، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين في إسبانيا، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا، وهكذا قضى الله فكن في ظفرك رحيمًا وعادلًا "، وتسلم

الملك المفتاحين وقال: " لا تشك في وعودنا ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة، فسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك " (الدنون، 1988م)، وأنزل العلم العربي الغرناطي من فوق برج الحراسة الذي يتوسط مبنى القصبة القديمة في الحمراء؛ باعتباره أكبر وأعلى أبراج الحمراء ليحل محله العلم الإسباني، وبسقوط غرناطة سقطت بقية مدن الأندلس، وانفرط عقدها، وتناثرت لآلئها، دون أن يمد أحد يد العون؛ لأن حكامها كانوا بين موالٍ للإفرنج، أو خصيم لأخيه المسلم، والكل غارق في حمى لا يرضى الله عنها، إلى أن خرجت الأندلس من نور الإسلام إلى عتمة الفرنجة، الذين بدورهم قاموا بتدمير معالمها الحضارية، وإحراق ذخيرة علمية كبيرة من كتبها، ومعالم الحضارة، وأمارات المدينة، التي بناها المسلمون على مدى ثمانية قرون (الحلبي، 2015م).

مسلمو الأندلس تحت الحكم الإسباني:

يعتبر سقوط غرناطة حدًّا فاصلًا بين حضارتين في إسبانيا، حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات، وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلًا، وتقذف به خارج شبه الجزيرة الأيبيرية، وسقوط غرناطة يحتل مكانة خاصة لدى الإسبان والعرب على السواء، فالإسبان اعتبروه آخر حاجز في سبيل توطيد سلطتهم وتوحيد بلادهم، واعتبره العرب مؤشرًا واضحًا لأفول سلطتهم على الأندلس، وبعد الاستحواذ على مدينة غرناطة وتعيين الكونت تنديلا أول حاكم نصراني على غرناطة بدأ تأمينها بالمقاتلين، وأخذ الملكان في إظهار عظمتهما، والمن بالهبات والعطايا بشكل عام، وخاصةً على كل من قام بخدمتهما في فترة الحرب، فوزعا ما اكتسباه من أراض، ووليا من يقوم على شؤون القضاء والحكم السديد؛ وذلك لإرساء الطمأنينة في نفوس المسلمين الذين باتوا رعاياهما. (أرينال، 2006م).

إن تحرير وثيقة الأوامر أو التعليمات من قبل الملوك كان متوائمًا مع اللحظات الحاسمة، التي عايشتها غرناطة خلال السنوات الأولى لاحتلالها بواسطة الجيش القشتالي، حيث كانت الأمور في الشهور التي تلت ذلك قد وضعت الأساس لتكوين حكومة جديدة، في ظل احترام شروط المعاهدة ونصوصها الموقعة مع المسلمين، وكذلك إنشاء البنية الأساسية للدفاع عن المدينة، والتصدي لأي محاولة للتمرد أو العصيان من جانب المسلمين، ومن أبرز الشخصيات المسيحية التي اختيرت وفراي إيرناندودى تالابيرا القس الأول لغرناطة، والسيد إينجو لوبيث دي ميندوثا قائد عام قوات المملكة، وأندريس كالديرون قاضي غرناطة، أما المسلمون فقد عيّنوا المفتين والمعلمين والعرفاء لمدينة غرناطة، حيث عُيِّن محمد البكيني،

وفرج البسطي، والفقيه محمد بن الفار، واختير خمسة وعشرون أمينًا يمثلون كافة الحرف والمهن، واختير مجلس بلدي للمسلمين يتألف من واحد وعشرين من المسلمين الأندلسيين، وهم من القضاة والفقهاء والأئمة والوعاظ، وكان يعقد المجلس اجتماعاته في منزل عبد البر مرتين في الأسبوع، (التهامي، 2004م)، ونظرا لخوف الملكين من المسلمين فقد قام المتعاونون بإقناع أهل غرناطة بتسليم أسلحتهم مقابل 8000 قدح من القمح، ستوزع بين من سلموا أسلحتهم، فالمسلمون كانوا قد عانوا الأمرين من الجوع إبان الحرب، فقبلوا بهذا العرض، وهذا منافٍ لأحد شروط الاتفاقية، وهي عدم تجريد المسلمين من أسلحتهم في الوقت الراهن ولا في المستقبل.

حاول القساوسة اجتثاث اسم سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– وعقيدته بأسرها، وتنصير المسلمين الذين يودون البقاء في هذه الأراضي وقبول التعميد، ومن لا يرغب القيام بذلك فعليه بيع أملاكه والذهاب إلى بلاد المغرب، بمعنى التنصير أو التهجير من دون أملاكه، وقالوا: إن هذا الأمر لا يخرق بنود الاتفاقية، وحجتهم أن تمسكهم بشعائر محمد –صلى الله عليه وسلم– تجبرهم على المعاداة الشديدة لما هو مسيحي، إلا أن الملكَيْنِ لم يعزما على استخدام الشدة مع الرعايا الجدد؛ لأن الأرض لم يكن يسودها الهدوء بعد، كما أن المسلمين لم يتخلوا تمامًا عن أسلحتهم، وخوفًا من أن يقال كلام شائن بحق الملكين، وأصرا على محاباة المسلمين، وعدم الموافقة على سبهم أو إساءة معاملتهم، وأن يسعى المطارنة ورجال الدين إلى تعليم أمور الدين إلى من يود سماعها طواعية، وإظهار المودة والرفق، دون تعرضهم لأي ضيم جراء ذلك (كارباخال، 2012م). وأصدر الملكان مرسومًا يهدد كل من يجرؤ على المساس بما تضمنته هذه المعاهدة، وأن يصونوا المعاهدة إلى الأبد على هذه الصورة التي انتهت إليها. لكن القساوسة والأحبار كانوا يخفون ما يصدر عن الملك من أوامر وقوانين في صالح الموريسكيين فلا ينتفع بها أحد، وكانت إرادة الديوان هي الغالبة، وكانت فوق رأى الملك.

ظهور الموريسكيين ومعاناتهم مع محاكم التفتيش:

لم يستمر هذا الهدوء سوى سبع سنوات، اتضحت بعدها حقيقة سياسة الإسبان، ونواياهم إزاء العرب المسلمين في غرناطة والمناطق الأخرى، وتمثل ذلك في عدم احترامهم لشروط المعاهدة، وفي ذلك يقول المقري: " إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعة مائة " (المقري، 1968م).

الموريسكيون (Moriscos): استخدم هذا الاصطلاح لأول مرة لتسمية مسلمي غرناطة بعد سقوطها في براثن النصارى، وظل مستخدمًا حتى منتصف القرن السادس عشر، حيث أطلق على المتنصرين المسلمين اسم الموريسكيين، وهذا الاسم باللغة الإسبانية (Moriscos) وهو تصغير للفظ مور (Moro) ويقصد منها التحقير والإساءة، ومن الدراسات يفهم أن هذا المصطلح يطلق على المسلمين الذين تنصروا إجباريًّا وكرهًا من أجل اعتناق المسيحية، ولذلك أطلق عليهم النصارى الجدد، وقد مرت عملية التنصير بثلاث مراحل:

الأولى: منذ تسليم غرناطة (897هـ/ 1492م– 904هـ /1499م) وتولى فيها فرناندو طالبيرا، قضية الموريسكيين واتبع سياسة التسامح واللين.

الثانية: من (904هـ /1499م– 906–هـ/1501م) وكلف فيها الكردنال فيسينيروس بتصفية القضية الموريسكية، فعمد استخدام العصا الغليظة وفرض التنصير.

الثالثة: من (906هـ/1501م) حتى القرن السابع عشر، وتميزت ببروز دور محاكم التفتيش في طمس كل معالم الحضارة العربية الإسلامية، وتحويل المساجد إلى كنائس، وتهجير الموريسكيين، كما شهدت مدينة غرناطة ومكاتبها الخاصة والعامة أشهر حرق في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، ولم ينجُ سوى بعض كتب الطب التي نقلت لجامعة الكالادي إينارس. (الحلبي، 2015م).

من هذه المحطة بدأت مأساة مسلمي الأندلس، وقد حاول أهل غرناطة التأقلم مع الوضع الجديد، على الرغم من المضايقات التي بدأت منذ دخول الإسبان إلى المدينة، فقد سيطر النبلاء على الأراضي وأملاك الأندلسيين، الذين سرعان ما أصبحوا أتباعًا لسادة جدد، ثم فرضت عليهم الضرائب، ومنعوا من أداء شعائرهم الدينية علنًا، وبدأت محاولات مستمرة لإقناعهم بالتخلي عن عقيدتهم، وقطع صلتهم بتاريخهم وحضارتهم، واستعملت في هذا السبيل أساليب الإرهاب والبطش والتعذيب الذي بدأ من التضييق عليهم في الأرض ولقمة العيش، وانتقل بعدها إلى محاربة دينهم وتاريخهم ولغتهم، وعندما أظهر الأندلسيون التمسك بدينهم وعروبتهم، جنحت السلطات الإسبانية والكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة، وحرفت بنود الاتفاقية بما يناسب أهدافهم الدينية والتبشيرية والسياسية، فبدأت محاكم التفتيش حربها ضد المسلمين، وتتبع نمط حياتها، وإجبارهم على التنصير، وكانت بداية الإرهاب بمنع مسلمي غرناطة من الاتصال بغيرهم؛ خشية أن يتأخر تنصيرهم، ويحظر عليهم الاتصال بمن تنصروا؛ حتى لا يفسد عليهم إيمانهم

بمخالطتهم، ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه، ولكن وُجد أنه من المستحيل تنفيذ هذا الأمر دون قطع ارتباط هؤلاء العرب بتاريخهم، لهذا أمر عماله (905هـ/1499م) بالطواف على أهل غرناطة لتسليم ما لديهم من مخطوطات عربية ومصاحف، وأشعلت فيها النيران، وكان كثير من المجلدات تعتبر نماذج لا تثمن من الوجهة الصناعية الفنية (تشارلس لي، 1988م) وهكذا ذهبت ضحية هذا الإجراء التعسفي غير المسؤول عشرات الألوف من الكتب العربية القيمة التي أنتجها الفكر العربي الإسلامي في الأندلس، وقد قدر البعض عددها بثمانين ألف مخطوط عربي، وفي حين يقول البعض الآخر: بلغت مليونًا وخمسة آلاف كتاب، وقد خلقت هذه الأفعال جوًّا متوترًا بين الأهالي الذين رأوا في الدخان المتصاعد من حرق تلك الذخيرة العلمية نذيرَ سوءٍ قادمٍ، وربما تكون أجسادهم هي من تحترق في مناسبات أخرى، وقد أخفى الموريسكيون تراثهم الفكري في جدران بيوتهم، وقد اكتشف بعضها في أواخر القرن التاسع عشر، وعُثِرَ على مئات المخطوطات والوثائق المخبأة بين الجدران التي بنوها يومئذ داخل منازلهم (التميمي، 2011م)، ومما زاد الوضع توترًا هو تحويل مسجد حي البيازين إلى كنيسة باسم. (سان سلفادور) وأكرهت الفتيات المسلمات على الاقتران القسري بالإسبان، وأجبر رجالهم على الزواج بالإسبانيات (عبد الواحد طه، 2004م)، وفي غضون سنوات قليلة سارت عملية (كثلكة) المجتمع الأندلسي على قدم وساق، بما يخالف ما نشأ عليه أولئك المسلمون من فطرة دينية، فكان على أبناء الأندلس التمسك بهويتهم ودينهم، والمحاربة من أجلها في عهود متنوعة استمرت لأكثر من قرن، واتخذ عدوهم أبشع الأساليب التي اكتوت بها أرواحهم وأجسادهم.

وليس أبلغ من الكلام إلا تلك القصيدة التي أرسلها موريسكيٌّ مجهولٌ إلى السلطان العثماني طلبًا لنجدته، وهذه مقتطفات منها:

سلام كـريم دائم متـجدّد	***أخـص به مــولاي خير خليفة***
سلام عليكم من عبيد تخلفوا	***بأندلس بالغرب في أرض غُربة***
سلام عليكم من شيوخ تمزقت	***شـيوبهم بالنتف من بعد عزة***
سلام عليكم من وجوه تكشف	***على جملة الأعلاج من بعد سترة***
سلام عليكم من بنـات عواتق	***يسوقهم اللبـاط قهرًا لخـلوة***
سلام عليكم من عجائز أكرهت	***على أكل خنـزير ولحم جيفة***
شكوناكم مولاي ما قد أصابنا	***من الضر والبلوى وعظم الرزية***
فلما تفانت خـيلنا ورجـالنا	***ولـم نر من إخوانـنا من إغاثة***

وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا ... أطعنا هُم بالكره خوف الفضيحة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا ... من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
إلى غير ذاك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطًا بخمسة
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وكل كتاب كان في أمر ديننا ... ففي النار ألقوه بهزء وحقرة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ففي النار يُلقوه على كل حالة
وقد أمرنا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وآها على أسمائنا حين بدلت ... بأسماء أعلاج من أهل الغباوة
وصرنا عبيدًا لا أسارى فنفتدى ... ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
ولكن خوف القتل والحرق ردنا ... نقول كما قالوه من غير نية
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ... إليه لجادت بالدموع الغزيرة

(أرينال، 2003م)

لقد كانت قصيدة طويلة، حاولت اختيار أبيات منها تصف بالتفصيل معاناة موريسكي الأندلس ومأساتهم، كانت معاناة حقيقة تجلت في تلك الأبيات، ويذكر أن محنة مسلمي غرناطة كانت أيام السلطان بايزيد الثاني، فاتفق هو وقايتباي سلطان مصر آنذاك على مساعدتهم بأن يرسل بايزيد أسطولا إلى شواطئ إسبانيا، وأن يرسل قايتباي جيشًا من جهة أفريقية، إلا أن بايزيد انشغل بفتنة أولاده كركود وأحمد وسليم، ووقوع الحرب بينهم حتى اضطر للتنازل عن المُلك إلى ابنه سليم، وأرسل الملكان الإسبانيان سفيرا يدعا بطره مارثير إلى مصر؛ ليقنع سلطانها بالعدول عن إرسال جيشه لإنقاذ مسلمي غرناطة، فما كان منهم إلا أن اكتفوا بإرسال كتب إلى ملوك إسبانيا وإلى البابا وملك نابولي بعدم إرهاق مسلمي الأندلس، ولكن تلك الكتب أججت نار التعصب الأثيم (مظهر، 1947م)، قد بلغ من إمعان السلطات المسؤولة في بحثها الدقيق للكشف عن كل من يراعي عادات الإسلام، وأنها اعتبرت الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر مبّررًا كافيًا للمحاكمة، كما أن صبغ الأظفار والأنامل بالحناء والامتناع عن أكل لحوم الحيوانات التي تموت طبيعيا، وذبح الطيور بقطع الرأس، وكذلك الاغتسال والطهارة واستقبال القبلة وصوم رمضان والختان كلها تهمة الارتداد عن الدين الجديد، وسبب ملاحقة محاكم التفتيش (**تشارلس لي، 1988م**) التي تفننت في وسائل التعذيب التي تفوق مخيلة البشر في استيعابها.

لكن ما أن بدأت الأمور تأخذ مسارها حتى أصدرت إيزابيلا مرسومًا ملكيا في سنة (910هـ/1502م)، تخير فيه المسلمين بين التنصير أو مغادرة غرناطة وبلاد الأندلس كلها، ولا يبقى ذكر فوق سن الرابعة

عشر أو أنثى فوق سن الثانية عشرة بعد شهر أبريل إلا إذا تنصروا، وسمح لهم المرسوم ببيع عقارهم وأملاكهم قبل الرحيل، ولكن حظر عليهم إخراج الذهب والفضة (البرهان، د، ت)، تفاقمت القطيعة بين المسلمين والنصارى، ولم تعد تحتاج أسبابًا أكثر لتكون خطيرة، وقام الأساقفة بالخطوة الحاسمة في الإجراءات القهرية بعد أن خاب أملهم في نتائج حملات التنصير، ولم تعد تستعمل تلك الكلمات التي تتبعها سياسة اللين مثل التبشير والوعظ والدعاية للديانة المسحية، بل استعملت كلمات أكثر حدة وتحمل صيغة القهر والإكراه، ووصل الأمر ذروته حين بدأ كاهن متعصب للكاثوليكية وهو فرانسيكسو دي سينيروس المعروف باسم خمينيت أوزمنيز بإرسال عماله إلى البيازين لتقصي أخبار أهلها واستفزاز المسلمين، وقد كانت أنظمتهم الكهنوتية التي رتبوها لمحاربة المسلمين، وأسموها بأنظمة فرسان الهيكل، وقلعة الرياح، ونظام ماري يعقوب، ونظام ماري جرجس، ونظام سيدات الفأس خاصا بالنساء، وزاد تعصبهم ما كان يصدره الباباوات من منشورات ضد المسلمين، لا سيّما بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية (مظهر، 1947م)، فكانت تلك نقطة التحول.

أسباب الثورة الخارجية:

- العداء الديني بين المسلمين والمسيحيين، الذي اشتد وأصبح أكثر عنفًا وهجومًا بظهور العثمانيين كقوة إسلامية صاعدة، ومشاركتهم الحاسمة في مصير الشعوب الإسلامية مشرقًا ومغربًا، والدفاع عنها، والعمل على إنقاذ الموريسكيين.
- عند خروج الأندلسيين أصبحوا يمثلون أقلية مهمة في الشعب المغربي، حيث بلغ عددهم 500 شخص، وقد ساهموا إلى جانب القائد التركي خير الدين ببروسا في المعارك ضد الإسبان سنة 1516م.
- رغبة خير الدين ببروسا بإنشاء دولة قوية موحدة بالمغرب لاسترجاع الأندلس وإنقاذ الموريسكيين من محاكم التفتيش، فقد استطاع القضاء على قلعة البينون الإسبانية في عرض البحر عام 1529م، كما أنقذ سبعين ألفًا من عرب الأندلس في سبع رحلات متتالية.

الأسباب الداخلية للثورة:

- التعصب الديني للملكين الكاثوليكيين والباباوات، والرغبة في (كثلكة) الجزيرة بالكامل، والقضاء على كل ما هو إسلامي وعربي.

- نهاية التعايش السلمي، والقيام بعمليات التنصير الإجباري، وصدور قرارات الحظر على الدين واللغة وممارسة الطقوس الإسلامية وحمل السلاح، وتجريدهم من حقوقهم الإنسانية، ونقلهم إلى مرتبة العبيد، ومصادرة أملاكهم.
- تأسيس محاكم التنكيل والتعذيب بعد فشل سياستهم في تنصير المدجنين بقيادة الكاردينال خمينيت مطران طليطلة.
- نتيجة للسياسة القهرية من جانب السلطات الإسبانية إزاء الموريسكيين العُزل، جعلهم يشعرون بالأمان والاطمئنان والثقة في هذه السلطات العنصرية، فثاروا لمواجهة العنف وبطش الإسبان بهم، وتعصبهم الأعمى، ولم يهابوا التنكيل والتهديد، وضحوا بحياتهم مفضلين الاستشهاد على الحياة الذليلة.
- أما الفتيل الذي أشعل تلك الثورة التي كانت تتخمر كالبركان، فهو ثورة حي البيازين بغرناطة، فثار إخوانهم في منطقة البشرات، موضوع هذا البحث.

أحداث ثورة البَشَرات:

كانت الشعلة التي أوقدت الفتيل والغضب المتوقد، تصرفات عمال الكاهن خمينيت الذين توجهوا إلى غرناطة يسوقون فتاة مسلمة إلى التعميد، وأثر صراخها في أهل غرناطة، حيث أسرع جماعة من المسلمين لتخليصها منهم، فوقعت مشادات مع عمال الكاهن الذين انهالوا على المسلمين بعبارات سفيهة وسليطة، مما أثار حفيظتهم وهياجهم، فقُتل اثنان من عمال الكاهن خمينيت وهرب الثالث. قد كانت هذه الواقعة بمثابة إذكاء للثورة في ربض البيازين، الذين تنادوا إلى حمل السلاح، وذهبوا حيث يقطن خمينيت معززين بمسلمين أتوا من أماكن أخرى بالمدينة، بهدف القضاء على سالب حريتهم وظالمهم وحاصروه. إلى أن نزل من قصر الحمراء القائد العسكري العام تنديلا بجنوده وأجلى المحاصرين (تشارلس لي، 1988م)، إلا أن الثورة استمرت تسعة أيام، غير أن الإجراءات التي قام بها الإسبان كفيلة بإنهاء الثورة في غرناطة، ولكن جذوه من الروح العربية القديمة بقيت متأججة بين سكان جبال البشرات، حيث زُج بالكثير في السجون، ونُزع منهم السلاح، وأصُدر قرار بترحيل موريسكي غرناطة كلهم إلى أقاليم قشتالة وأندلوثيا الغربية، وخلال أيام قليلة غادر خمسون إلفًا مساكنهم ولم يعودوا إليها مطلقا، وخلاصة القول: إن نظام المعايشة الذي قررته مواثيق عامي (933 . 934هـ/1525. 1526م) أصبح في حالة متردية، وكذلك التوازن الذي تحقق بكل صعوبة خلال الثلاثين عاما قد انهار في الفترة بين (963. 976هـ/1555. 1568م)، وهكذا انتهت

الثورة الأولى بالبشرات، وتلا ذلك نصف قرن والمسلمون في غيظ مكتوم، وكان تجريد العرب من قوميتهم ودينهم دفعة واحدة فوق احتمال أي شعب.

وحدث يوماً شغب من جراء بعض جباة الضرائب، فاشتعلت نار الفتنة الخامدة التي كانت تتحرق إلى فتيل يشعلها، وقام بعض المزارعين بقتل بعض جنود الإسبان الذين كانوا يحتلون دورهم، فأعلن الجانب الموريسكي التمرد في الشتاء، حيث يطول الليل ويسمح لهم بالخروج من الجبال والوصول إلى غرناطة والعودة منها سالمين، وتكون السفن راكدة في الموانى بلا أسلحة، سنة 976هـ في الرابع والعشرين من ديسمبر 1568م في صبيحة أعياد الميلاد في قرية بيثنار، حين يكون الجميع في الكنائس ومشغولين بالصلوات والذبائح وعُزل من السلاح؛ بسبب برودة الجو، وخطط لها فرج بن فرج الذي ترجع أصوله إلى بني الأحمر آخر حكام غرناطة، وقيل إلى أسرة بني سراج العربية، ومحمد بن عبو واسمه الإسباني دييغو لوليت، وجمعا القوات وطلبا المدد من ملوك شمال أفريقيا، وأخذوا يجتمعون سرًا وبايعوا ملكًا عليهم يدعى إيرناندو دي كوردوبا، وقد اتخذ اسمًا إسلاميا وهو " محمد بن أمية " واستاء فرج بن فرج من مبايعة ابن أمية؛ لأنه أكثر خبرة في الحرب، وأنه أول من دعا إلى حرب الإسبان، وكادت تضطرم بين الفريقين نار الفتنة، إلا أنهما اتفقا على توزيع المناصب ،وابن أمية كان عضوا في مجلس بلدية غرناطة، وينحدر من نسل بني أمية، وقيل تعرض للإهانة عندما حاول أحد الجنود تجريده من سلاحه، حيث يحق للوجهاء حمل سلاحهم دون الموريسكيين العاديين، فغضب ورفض تسليم سلاحه لدخول إحدى القاعات، وامتطى جواده، وقال للحارس: ستندمون، تلك الحادثة التي يقدمها مؤرخو الإسبان على أنها سبب الثورة، فقد كانت حادثة منعه من الدخول بسلاحه لقاعة الاجتماع حادثًا عرضيا، ولم تكن له الأهمية، إلى جانب حقده الدفين على الإسبان؛ لأنهم سجنوا والده، فقد قام ابن أمية بقتل متهم والده والشهود الذين شهدوا ضده سرا، وقد اختار الأمير ابن أمية عمه المسمى فرناندو الزغوير " الصغير " واسمه المسلم ابن جوهر قائدا للجيش، وصلى الأمير وأتباعه صوب الكعبة، وأرسل ابن فرج على رأس قواته إلى منطقة البشرات (الحتاملة، 2000م)؛ وهي أراضٍ مرتفعة بين جبال سيرانيفادا والبحر المتوسط، ويبلغ طولها نحو تسعة عشر ميلاً، وهي منطقة جرداء فقيرة، إلا في بعض المروج التي زرعها الموريسكيون، الذين استعملوها وربوا فيها الماشية ودودة القز؛ للحصول على الحرير، وتضم الكثير من القرى التي يقطنها العرب، فقد وقع الاختيار عليها كمنطقة للحرب؛ بسبب قربها من البحر الذي كانوا ينظرون إليه المنقذ الذي يمدهم بالسلاح والرجال، إلى جانب

كونه منطقة وعرة يصعب التسلل إليها، ولأن سكان هذه المنطقة كانوا معروفين بالإقدام والشجاعة؛ واتخذ مقامه في أعماق الجبال في مواقع منيعة، وبعث رسله في جميع الأنحاء، يدعون الموريسكيين إلى خلع الطاعة للنصارى والعودة إلى دين محمد، وانضمت القرى الأندلسية واحدة تلو الأخرى، ورأى ابن أمية ووزيره ابن فرج في أهلها القوة والإيمان، وفي (8 يوليو عام 1569م) تمرد ألف موريسكي في غيخار، وتمرد في البشَرات مائتا موقع، وكانت هناك قرى لم تتمرد بعد؛ لأنها في موقع مسطح، وليس بها ما تتحصن به، وكانت هناك قرى لم تتمرد خوفًا من الإسبان، ويقدر عدد الثوار في البشرات بثلاثين ألف مسلم تقريبًا، وأصدر ابن أميه أمرًا بأن يقوم ستة أو سبعة آلاف مسلم من خيرة من يجيدون الإسبانية بالدخول إلى مدينة غرناطة في الثانية فجرًا. وكانت الخطة تقضي أن يتجمع ثلاثة آلاف في ميدان بيارامبلا، وألفان في الميدان الجديد، وألفان في قلعة بيباتاوبين (باب التوابين)، وألفان في حقل الأمير، وخمسمائة في المحكمة، وخمسمائة في بيت الرئيس، وخمسمائة في بيت أسقف غرناطة، وخمسمائة في مقر محكمة التفتيش، وكان على كل خمسمائة أن يذهبوا إلى الأماكن الرئيسة، ولكن فشلت خطة احتلال المدينة؛ بسبب سوء الطقس، فبعد الظهر بدأ نزول الجليد بغزارة، بحيث لم يكن من الممكن رؤية الطرق، والرياح شديدة وباردة، حتى ظن أهل البيازين أن الخطة قد اكتشفها الماركيز، ففضلوا انتظار فرصة أخرى مواتية، خمسمائة مسلم فقط هم الذين دخلوا وحاولوا إثارة أهل البيازين، حتى قيل: إن أحد الشيوخ فتح نافذته وسأل عن عددهم، فأغلقها وقال: " يا إخواننا أنتم قليلون، وقد أتيتم متأخرين، وماركيز موندیخار قد شعر بنا، وقد طلب منه الملك أن يحتاط منا " ولكن الثوار كانت عيونهم على موريسكيي حي البيازين الذين ركنوا إلى مصالحهم وأمنهم الشخصي؛ خوفًا من المجازفة بأي أعمال تضر مصالحهم، أو الانضمام إلى الثورة ضد أصحاب القوة الأكبر والأعظم.

لكن الجليد لم يكن سببا في منع تنفيذ الخطة، فأهل الغوطة لم يذهبوا إلى المدينة؛ لأنهم لم يسمعوا الإشارة المتفق عليها، وأهل البيازين لم يذهبوا؛ لأنهم ظنوا أن الخطة لم تنجح لقلة العدد، فقد كان التوقيت الشتوي مقصودًا، ولما لم يستطع الموريسكيون الثائرون الاستيلاء على غرناطة، قرروا التجمع في مكان يُسمى أوخيخار، وهاجموا قائد أدرا وأربعين جنديا كانوا معه، واستولوا على أبراج أوخيخار، وقرر خوان ثاباتا سيد غواخراس الذي عُرف عنه احترامه لرعاياه زيارتهم حتى لا ينضموا إلى الثوار، فوصل إلى القرية

ومعه مائة جندي، وعلى الرغم من أنه تحدث معهم حتى يضمن ولاءهم، فإنهم كانوا في داخلهم مصممين على تنفيذ عزمهم على الثورة (عبد الرحمن، 2008م).

وسار ابن فرج على رأس خمسمائة فارس يوقظون روح الثورة في جميع أنحاء مملكة غرناطة من شواطئ البيرة حتى جبل طارق، وهم يهتفون " الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله " وأحرقوا الكنائس التي كانت سابقا مساجد لهم، وصبوا جام غضبهم على رجال الدين، ولكن هذه التصرفات أغضبت ابن أمية الذي عزل ابن فرج من منصبه في قيادة الجيش، وعين عمه جوهر الصغير، ونظم ابن أمية قواته من جديد، وأرسل في طلب الغوث من مسلمي المغرب وشمال أفريقيا والعثمانيين، وقد وصلت السفارة الموريسكية إلى إسطنبول واستمع الصدر الأعظم إلى الرسائل وشاهدها، وقرر إرسال أحد عشر قاربا عليها ألفا جندي تركي وأسلحة؛ لكي تصل إلى مينا غاتا، وقد أنهى السفراء الموريسكيون مع الصدر الأعظم حديثهم بهذه الكلمات: " لا نقول يا سيدي إن وصول أسطولكم إلى إسبانيا سيمكننا من الاستيلاء على مملكة غرناطة؛ بل على أندلوثيا كلها، وهى أفضل أرض في الدنيا" (عبد الرحمن، 2008م). وللأسف بسبب الجواسيس وصلت أنباء المعونة العثمانية بسرعة إلى مسامع الإسبان، وقد ألقي القبض على مجموعة تركية جاءت للتأكد من سلامة طريق البحر، واعترفوا بعد تعذيبهم أنه قد جاءت لمساعدة الموريسكيين في البشرات سبعة سفن، وسفينتان محملتان بالجنود والعتاد، وقد اختبأ المسيحيون خلف جبل في مضيق ميسينا، وبعد معركة استمرت أربع ساعات مات 1325 تركيًّا، وهكذا منعت عن مسلمي البشرات سُبل النجدة والحماية التي كانوا ينتظرونها من العثمانيين، التي لو وصلت لشكلت خطرًا على إسبانيا بأكملها، ولكن عزيمة مسلمي البشرات لم تنهر بسبب هذه الحادثة، بل شنوا هجمات على الإسبان؛ مما بث الرعب في نفوسهم وخاصة القساوسة. وصل ابن أمية إلى قصر لوشار ليراقب سير الثورات، وقد بدأت الثورة في لانجرون وانتقلت حتى عمت جميع مملكة غرناطة، ويقدر ماتياس إسكوديرو عدد الموريسكيين الثائرين في البشرات في أوائل شهور الحرب بسبعة وثلاثين ألفًا، وكان الأسطول التركي على وشك الإبحار لمساعدتهم، وقد خرج من الجزائر أربعون قاربًا؛ لتزويدهم بالمؤن، مع وصول مساعدات مسلمي الجزائر والأتراك كان عدد القرى الموريسكية المتمردة يزداد، وبسبب التعصب الديني كان من البديهي القضاء على تلك الثورة بقوة السلاح؛ لأن سياسة اللين والمفاوضات ليست واردة مع الموريسكيين، لذلك نظم فيليب الثاني جيشًا كبيرًا بقيادة الماركيز دي موندیخار، كما طلب فيليب العون من لومبارديا ونابولي في إيطاليا

وجزيرة صقلية، وقد قُتل كثير من الموريسكيين في تلك الحروب، مما سبب امتعاض المستعربين المنظمين إلى جيوش الماركيز؛ بسبب المذابح والوحشية ضد الموريسكيين، وانتقل الماركيز إلى قلب البَشَرات بعد وصول إمدادات من مقاطعة جيان لمحاربة الجيش الذي بعثه ابن أمية بقيادة المزارع الثري شابا، فقام الموريسكيون بأعمال احترازية بتدمير جسر طبلاطي الذي يسهل المرور من فوق وادي سحيق إلى لانجرون، ولكن قطع الجسر لم يكن عائقًا أمام جيش الماركيز الذي كان يتقدّمه راهب فرنسي هو الأب كريستوبل مولينا، الذي يحمل صليبًا في يد والسيف في يده الأخرى، يحث الجنود على اجتياز الهوة عن طريق خشبة تربط بين الجبلين، فاجتازه الجيش على الرغم من سقوط البعض فيها، ثم توجهوا إلى لانجرون لتحريرها من ناطقي الشهادتين، فهي حربُ دينيةً يُذبح فيها المسلمون وتسبى نساؤهم، وعند تقدم جيش الماركيز حرر مسيحيين محاصرين منذ سبعة عشر يوما في برج كنيسة أرجبة، وعند بقيرة دارت معركة حامية الوطيس بين جيش الماركيز وابن أمية المكون من أربعة آلاف رجل، جاءوا لمنع جيش الماركيز من عبور الفجارين، وقد قضى الموريسكيون على الفرقة التي تركها الماركيز لحماية جسر طبلاطي، وقبض ابن أمية عليهم بعدما احتموا بالكنيسة، وأخذوهم رهائن، ويُبرز كل المؤرخين شجاعة الموريسكيين واستبسالهم، إلا أنه كلما اشتدت مقاومتهم زادت بطولة المسيحيين، وفي هذه الأثناء كانت تجري مفاوضات سرية بين الماركيز وصهر ابن أمية " والد زوجته " يعد بتسليم نفسه ومن معه، مما بث روح الحماس لدى الماركيز الذي وصل بجيشه حتى جبليس التي استسلمت قلعتها بما تحويه من رجال ونساء بلغ عددهن مائتين كن ضحية للذبح، لجأ الماركيز إلى الخدعة في استدراج الموريسكيين لتسليم أسلحتهم مقابل العفو العام، وبعث إلى ابن أمية عن طريق ضون الونسو دي غرناطة وهو مسلم سابق يطلب منه الاستسلام، في الوقت الذي يسير الماركيز بجيشه ويتعرض للموريسكيين، فرفض ابن أمية المفاوضات وعلم بمؤامرة صهره، فطلق زوجته غيظًا، وللأسف وقعت والدة ابن أمية وشقيقاته في الأسر، ومئات من الموريسكيات، عندما احتل الماركيز بطرنه فك أسر كثير من المسحيين وتحصل على كثير من الغنائم.

الغريب في الأمر أنه لم يعتبر مسلمو الأندلس من تفرق الكلمة والصف، وكأن درس الأمس القريب في تفرق الكلمة وتبعثر الشمل لم يكن عبرة لهم (عن خيانة صهر ابن أمية أتحدث)، أما الماركيز ماضٍ في مسيرته يفك القلاع والحصون الواحدة تلو الأخرى من الموريسكيين، منكلا بكل من يلقى منهم، غير آبه بطفل أو شيخ أو امرأة، متوجها إلى جبل غواجار الذي يوجد على قمته ألف موريسكي بقيادة الزمار

الذي بدوره صد هجوم الماركيز للجبل ثلاث مرات، عندما قام بإلقاء الحجارة على رؤوسهم، ولكن عدم تكافؤ القوى جعلت الزمار يلجأ إلى شِعب الجبال هو ومقاتلوه وابنته، ولكن للأسف وقع في الأسر واقتيد إلى غرناطة وحكم عليه بالموت، وهدم جيش الماركيز قلعة غواخرس، وبذلك أخضعت البَشَرات (مؤلف مجهول، 2007م).

لكن ثورات الموريسكيين لم تنقطع وتنفجر بين الفينة والأخرى، على الرغم من قوة جيش الماركيز والمدد المتواصل الذي لم ينقطع، فإنهم لم يستطيعوا استئصال الموريسكيين، لذلك قرر الملك فيليب الثاني أن يذهب بنفسه لإخضاع التمرد أسوة بما فعل الملكان سابقا، ولكن أشاروا عليه بإرسال أخوه غير الشرعي الملك ضون خوان النمساوي إلى غرناطة، ووضع تحت إمرته مجلسًا حربيا، ولكن هذا التصرف جعل الجنود أقل انضباطية، وعصوا قادتهم، وعاثوا فسادا في القرى التي احتلوها قتلا ونهبا وهتكا للأعراض، فما كان من الموريسكيين إلا حمل السلاح القادر وغير القادر لرد عدوانهم وطغيانهم، والتفوا حول ابن أمية وعاهدوه بالقتال حتى النصر أو الاستشهاد، وقد بث فيهم ابن أمية الحماس عندما أخبرهم بالسفراء الذين أرسلهم إلى الجزائر والعثمانيين، وأرسل سفارة برئاسة فرناندو والحبقي إلى ملك فارس، ولكن حدثت واقعة أججت الموريسكيين في عدة مناطق، وازدادت نقمتهم على الإسبان، حيث وقعت مذبحة راح ضحيتها مائة وعشرة من أثرياء الموريسكيين الرهائن في سجن غرناطة، وقتلوا جميعا على الرغم من محاولاتهم اليائسة للدفاع عن أنفسهم بالسلاح الأبيض، ولما بلغ إلى مسامع أهل غرناطة أنباء تلك المذبحة ثاروا وقتلوا ثمانمائة جندي وقائدين هما البرو دى فلورس وأنطونيو دي آبله، وثار كذلك الأهالي في طرن وقتلوا والي عذرة دييغو دي غاسكا، في هذه الأثناء وصل الأمير ضون خوان إلى غرناطة، ووعد بإخراج مسلميها وإرسالهم إلى قشتالة، حتى لا يلتحقوا بالثوار، ونتج عن ذلك فرار مجموعة من الموريسكيين إلى الجبال والتحقوا بجيش ابن أمية.

في الوقت الذي كان ابن أمية يتهيأ لأخذ المبادرة في الهجوم، حيث عسكر في البشرات من ناحية اجيجر، وصلته قوة من الجزائر بقيادة التركي حسين، واتفقوا على حرب العصابات الخاطفة والسريعة؛ لاستنزاف قوى العدو، وهزموا كل من صادفهم من فرق الإسبان، ودارت معارك بينهم وخسر الموريسكيون صخرة فريخليانا، وقُتلت حاميتها، وأسر ثلاثة آلاف من الموريسكيين وتحصلوا على غنائم هائلة، كما جهز الإسبان قوة كبيرة من أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية لإخماد ثورة البَشَرات، وتداعت الأمم للقضاء على مسلمي

الأندلس من كل ناحية وصوب، فقد تطوع قرابة ألف من مقاطعة قطالونية، ووصل جنود فرنسيون لمساعدة الملك فيليب في حربه ضد موريسكيي البَشَرات، فوصلت ثماني عشرة سفينة حربية من البلدات المسيحية، لكنّ موريسكيي بلش مالقة انتصروا عليهم وشردوهم، أما ابن أمية فقد توجه إلى نهر المنصورة، واحتل قصور أوريا وكهوفها واستسلمت سيرون، في الوقت الذي كانت البشرات تشتعل بالثورة، كان ضون خوان منشغلا بالمجلس الذي فرضه عليه شقيقه الملك فيليب، وصدرت الأوامر بتهجير الموريسكيين من كافة غرناطة وضواحيها، أما ابن أمية كانت انتصاراته تملأ منطقة نهر المنصورة، يجند الجنود ويعد السلاح والخيل، وأرسل ابن أمية يفاوض على والده وأخيه الأسيرين لدى الإسبان مقابل ثمانيين أسيرًا، فكانت مراسلة ابن أمية كفيلة ببث الخلافات بين قادة مجلس شقيق الملك الذي اتحدت كلمته على كسر شوكة الموريسكيين، واستمرار الحرب دون مهادنة حتى يقضي على ثورة البَشَرات، ولكن على الجانب الموريسكي كان نتيجة تلك الرسالة وخيمة على ابن أمية فقد قتله أعوانه بسببها، لهوادته في محاربة الإسبان بسبب خوفه على والده وشقيقه اللذين كانا أسيرين لدى الإسبان، وقد تورط في اغتياله أقرب الناس إليه وهم القائد التركي حسين وابن عبو وديغو الموريسكي، فخنقوا ابن أمية، وهاجموا بيته فاستولوا على ممتلكاته، وبموته طويت صفحة مشرقة من تاريخ الموريسكيين الذين أبوا الظلم وتحولوا إلى قوة يهابها الإسبان (الحتاملة، 2000م).

بعد اغتيال ابن أمية انتخب أحد المتآمرين ملكا مكانه وهو دييغو لوبث، واتخذ اسم عبد الله بن عبو، وبعض المراجع تذكره باسم عبد الله بن أبيه ملك الأندلسيين، وكان صنديدًا مخلصًا، وقائدًا صادق العزم، يقذف بنفسه بين مخالب الموت فداء لأتباعه، وبارك نائب السلطان في الجزائر انتخابه، وبعث بعض التعزيزات، فطوق مدينة أرجبة، واحتل ابن عبو قرية غاليرا، وكانت مركزا استراتيجيا ممتازا، ونقل المعركة تحديا إلى غوطة غرناطة، غير أن القدر كتب على ابن أبيه هذا أن يحارب عدوا من صنف جديد، وهو أخ الملك سالف الذكر وهو شاب في الثانية والعشرين، ملأته الآمال، فأقنع أخيه الملك فليب بعد أن تبادلا كثيرًا من الرسائل بخطورة الموقف وتفاقم الخطب، وضرورة اتخاذ وسائل عنيفة لحسمه، فوصل إليه في النهاية أمر من الملك بالهجوم الشرس.

قمع الثورة:

قد أمر الملك فيليب بتكوين جيشين، أحدهما بقيادة ضون خوان ليحارب حول نهر المنصورة، والثاني بقيادة دوق سيسا ليحارب في البَشَرات، وكانت أولى حملات ضون خوان هو احتلال غويخار التي فر منها الموريسكيون والتحقوا بقائدهم ابن أبيه، ولم تكف التعزيزات إلى ضون خوان حتى بلغ جيشه اثني عشر ألف مقاتل، فطوق غاليرا ووضع الألغام والمتفجرات وقصفها بالمدفعية فأفناها تماما ورشها بالملح ليستعجل ذوبان الثلوج حتى لا يتمكن الموريسكيون من الاختفاء، وقتل في هذه المعركة ألفين وأربعمائة موريسكي، والمئات من النساء والأطفال، عاد ضون خوان بجيشه بعد تعزيزه سنة (978هـ/ 1570م) إلى سيرون، ولم يكن الموريسكيون يعلمون بتسلل هذا الجيش الذي أشعل النيران في البلدة والحصن، ففر منها الموريسكيون والتجؤوا إلى الجبال ليتحصنوا بها، ومنها اتجه خوان إلى تيجولا، وأخذ نساءها وأطفالها أسرى، عندما لم يجد فيها رجالها الذين انسحبوا تحت جنح الظلام، وأخذت الحصون والقلاع تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد الإسبان، مما دفع إيرناندو الحبقي قائد قوات الموريسكيين إلى طلب الهدنة من ضون خوان؛ ليتوقف سفك الدماء، وأن يعطي الأمان للموريسكيين مقابل إقناع ابن عبو بالتخلي عن حصون نهر المنصورة، والانسحاب إلى البشرات، وكُلف ضون الونسو دي غرناطة وهو موريسكي كان قد تنصّر بالتفاوض مع الموريسكيين على الاستسلام وشروطه، إلا أن ابن عبو رد رافضًا الاستسلام، مدافعا عن عدالة الثورة، موصيا الونسو بأن يجتمع بنفسه بالحبقي، جاعلا إياه ممثلا مؤتمنا له، وجرت المفاوضات بين الحبقي وضون خوان، واكتشف ابن عبو خيانة الحبقي، وأن وثيقة الاستسلام مزورة، فرفض ابن عبو الاستسلام، وأمر أتباعه بقتل الحبقي، ودُفِن سرا، وأبلغ ابن عبو ضون خوان: " مادمت قد انتخبت ملكا فإنني لن استسلم ولو بقيت وحدي في البشرات "، فلما بلغ ضون خوان ما قاله ابن عبو بكبرياء، شكل جيشين على رأس أحدهما ريكسنس ليدخل البشرات، وتوجه ضون خوان إلى وادي آش ليلتقي الجيشان في وسط الجبال، فشن ريكسنس هجوما شرسا على البشرات، فقتل الشيوخ والأطفال، وبقر بطون الحوامل، ووزع الموريسكيات على الجنود، وأسر العديد منهم فبيعوا عبيدًا، وكان يشعل النيران على مداخل الكهوف ليختنق من بداخلها، وإن خرج تحرقه النيران. وللقضاء على رأس المقاومة بعث الإسبان موريسكيين من أقارب ابن أمية للتفاوض مع ابن عبو، ولكن قتلوه وجميع مرافقيه ونكلوا به ومثلوا بجثته، وطافوا بها على فرس ليراها الناس سنة (979هـ1571م)، وجُزَّ رأسه وعُلِّق على باب المذبح بغرناطة، وبقي معلقًا ثلاثين

عاما، واستطاع ضون خوان أن يخضع مناطق لم تكن قد استسلمت في البشرات وهي: غاليرا، وسيرون، وبرشينا (الحتاملة، 2000م).

استمرت الثورة سنتين في منتهى شدّتها، بين مد وجزر، وظل الموريسكيون يقاومون بكل ما لديهم في الجبال والسهول والقرى والمدن، كما حاول القادة الإسبان الذين تعاقبوا على قيادة الجيوش النصرانية أن يستخدموا كل وسائل العنف والسلب والنهب والتشريد؛ لبث اليأس في نفوسهم، لكن الموريسكيين ظلوا يحاربون إلى حين استنفاذ الوسائل المتوفرة لهم آنذاك، وأبلى الطرفان فيها بلاء عظيمًا، ومات فيها خلق كثير من الطريفين، وقتل في الثورة كما قيل أكثر من عشرين ألف عربي (الجارم بك، 1944).

وبذلك أخمدت ثورة قامت لا لشيء إلا انتقاما لكرامة أهينت، ودينًا اغتصب، ومصاحف أحرقت، ولغةً طمست، وهوية نسفت، وحضارة غمرت؛ بسبب كلمة تفرقت، وصف تمزق، وطمع تأصل، واستعانة بالعدو على الأخ، فكانت عواقبها وخيمة على أجيال لم يكن لها ذنب في تحمل وزر خيانة أجدادهم، وأجمل بيت قِيلَ في ذلك من الشعر باللغة الموريسكية:

يا رب. . . يا من ترى ما يعانيه عبادك

وهم أموات في قيد الحياة. . . . . وأجسادهم تتلظى

يتعذبون بسبب خطايا آبائهم الذين كانوا يعيشون بغير وازع

أو لأنك تنظر إلى خلقك في رضا. . . . ارفع حربة غضبك الحامية

النتائج التي ترتبت على تلك الثورة:

كانت نتائج تلك الثورات وخيمة على الأطراف المتنازعة، وكل منها خرج خاسرا:

- فعلى الجانب الإسباني، كلفت عملية إخماد ثورتي البيازين البشرات، خزينة الدولة في عهد الملكين الكاثوليكيين ما يقارب 80 مليون مرافيدي، إذ شارك في إخماد هاتين الثورتين نحو 13 ألف فارس، 50،000 من المشاة، وألفا قطعة من المدفعية، وبلغت الديون 370 مليون مرافيدي، واستقدم الملكان بسبب هذه حرب الخبراء والعلماء من أنحاء أوروبا؛ لإدخال التحسينات على المدفعية، وتحضير التجهيزات لصناعة المدافع والطلقات والبارود، وجلب المواد الخام من صقلية وبلاد الفلانديس والبرتغال، وقد عني الإسبان بإنشاء الأساطيل وتدريب الرجال على قتال البحر والبر، وكانت بحريتهم في حكم شارلمان تخرج من جنوة ومن ثغور إسبانيا الشرقية والجنوبية، وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية، واستولت

مراكب شارلمان على بجاية ووهران ومدينة الجزائر، وأنشأ الإسبان معاقل وحصونًا كبيرة على سواحل المغرب.

وعندما هُجِّر الموريسكيون أصيب الاقتصاد الإسباني بانتكاسة حادة، وخاصة في بعض القطاعات التي برعوا فيها، إذ خلت البساتين من الأيدي الماهرة، وتعثر قطاع النقل بشكل حاد، وتعطلت صناعة الحرير؛ لأنها كانت حكرا على الموريسكيين، فانهار اقتصاد البلاد وخاصةً المناطق الشرقية والجنوبية من إسبانيا، وأعلن النبلاء إفلاسهم؛ لأنهم لم يستطيعوا توفير بديل للموريسكيين، ولم يتمكنوا من سداد ديونهم أو دفع الضرائب، مما أدى إلى انخفاض دخل الدولة، وزاد ذلك من حدة المشكلات الداخلية والخارجية في إسبانيا، أما على الصعيد العلمي، فلا يخفى على أحد تفوق الأندلسيين في جميع مجالات العلوم، قد عانت إسبانيا من الجهل الذي خيم عليها بعد تهجير الموريسكيين؛ نتيجة حرق عدة ملايين من الكتب العربية، وتحريم استخدام العربية، قد أحدث تهجيرهم هزة أصابت المجتمع الإسباني، فارتفعت أصوات التذمر والشكوى تدريجيا؛ بسبب قلة الأيدي العاملة، والارتفاع الحاد في الأجور، وتعطل بعض الأعمال التي كانت ممارستها مقصورة على الموريسكيين.

- أما على الجانب الموريسكي فلم يكن أقل حظا من الإسبان، فقد انتزع من أرضه وأملاكه وحياته ودينه ونُصّرَ قسرًا، وتقرر تنفيذ خطة لنفي الموريسكيين، وأرسلت أوامر إلى حكام صقلية ونابولي وميلانو؛ ليعدوا ما يلزم من سفن النقل لأولئك المتنصرين، وقد جمعت سفن كثيرة تعد بالعشرات في جزيرة ميورقة، ولما كان الثاني والعشرون من شهر سبتمبر سنة (1609م/1018هـ) أعلن قرار النفي الأخير، فاضطرب المتنصرون وفزعوا، وأنه يجب أن يغادر الموريسكيون في ظرف ثلاثة أيام من نشر القرار، وجزاء من يتخلف هو الموت، لكن الجنود الذين وُكِّل إليهم ترحيل السكان العرب والمسلمين وحراستهم كان يعوزهم النظام والتدريب، حوَّلوا الأمر الموكل إليهم إلى نهب وسلب، فكانوا يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون الأولاد عبيدًا، وقد كان الرئيس تركويمارا يفخر بأنه قضى بأحكامه الجائرة وتفننه في صنوف التعذيب على نيف ومائة ألف خلال سبعة عشر عامًا التي كان فيها رئيسًا لذلك الديوان الدموي، وقدر بعضهم عدد ضحايا محاكم التفتيش بما لا يقل عن تسعة آلاف ألف من الناس في أثناء المدة الممتدة بين سنة 1333م إلى سنة 1835م، **حيث ألغى من إسبانيا بعد أن لطخ كل أرجائها بالدم المسفوك في سبيل نصرة الكثلكة والقضاء على مخالفيها.**

وهكذا كانت خاتمة العهود التي قطعها فرديناند وإيزابيلا للعرب والمسلمين قبل ثمانين سنة، ولم تنته مصائب المنفيين و آلامهم عند حد الترحيل من ديارهم، فقد روى شاهد عيان وهو المبعوث البندقي ليوناردو دوناتو أن الكثير من أولئك المنفيين هلكوا لفرط ما لاقوه من شقاء وشدة لم يكن لهم مفر من تجشمها؛ بسبب الظروف المحزنة التي كانوا يعيشون فيها، ويقدر البعض عدد المنفيين إلى أواخر سنة (1609م) بما يقرب من مائة وخمسين ألفًا، وكان بين المتنصرين ألوف من ذوي الثروة، كما رُحل من الأرجوان ما يقرب الخمسة والعشرين ألفًا إلى نَبَرّة " نافارا " ورحل من قشتالة نحو سبعة ألفا قصدوا فرنسا، فأذن لهم ملكها هنري الرابع بشرط المحافظة على المذهب الكاثوليكي (مظهر، 1947م)، وقد ثبت أن من نفوا من العرب في المدة بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر يبلغون ثلاثة ملايين نفس، وكانت نتيجة التهجير الذي فرض على الموريسكيين أن أصبحوا يشكلون خطرا حقيقيا وكبيرا على أمن الشواطئ الإسبانية، وعلى الملاحة في غرب البحر المتوسط، وقد كثر في تلك الفترة غزوات موريسكي الأندلس وازدادت حجمًا، وزرعت الرعب في قلوب الإسبان، الذين كانوا يؤسرون من سكان الشواطئ مقابل الفدية لإخوانهم الأسرى لدى الإسبان، وكل ذلك كان نتيجة لسياسة إسبانيا العدوانية إزاء موريسكي الأندلس، فتحول الموريسكي المتحضر صاحب أعظم حضارة في الأندلس يأتيها طلاب العلم من كل حدب وصوب، إلى قاطع طريق وقرصان في البحر.

- بعد قمع ثورة البشرات نُقل جميع سكان البشرات إلى قشتالة وغرب الأندلس، وأخليت 270 قرية من سكانها، واستبدلوا بالمسحيين من الشمال الإسباني، وبعض القرى بقيت خاوية على عروشها.
- إن آلاف الموريسكيين لجأوا إلى الجزائر والمغرب والدولة العثمانية بفعل فشل هذه الثورة، وقد نشطوا نتيجة لذلك حركة التصدي للإسبان، وساعدوا العثمانيين بفضل معرفتهم اللغة القشتالية، والأماكن الجغرافية وطرق البحرية.
- إن القضاء على ثورة الموريسكيين بغرناطة وانتصار المسيحية في مالطا قد هيج البابا الخامس والملك الإسباني لبعث الرابطة المقدسة بين الدول الأوروبية ضد العثمانيين.
- العداء الديني كان وراء أسطورة الفكر الصليبي في معركة لابنتي سنة 1571م، التي وحدت الدول الأوروبية في معركة بحرية ضد العثمانيين، وكان على رأس الأسطول المسيحي أخو الملك غير الشرعي

ضون خوان، وقد عد المسيحيون هذا الانتصار، انتصار الصليب على الهلال. وأدى ذلك بدوره إلى احتلال تونس وطرد العثمانيين منها سنة 1573م.

- انصب اهتمام الملك فليب الثاني على سواحل شمال أفريقيا، وعلى الخصوص قلعة حلق الوادي، وكان يخطط لتحصينها أكثر، والعمل على تصفية ولاية الجزائر الخطيرة على أمن السواحل والبواخر الإسبانية.
- سيطر على النصارى الإسبان بعد هذه الثورة انتفاضة الموريسكيين في أي وقت، على الرغم من أن السلطات نفت ما يقرب من ثمانين ألف موريسكي، فإنه ظلت مجموعتان كبيرتان من المورسكيين، الأولى بأراجون والثانية ببلنسية.

أمامك قصة عن مجد قوم تقشع عن سمائهم السحـابُ
مناصلُ إن دُعوا للحرب لبـوا وإن نودوا لمكرمةٍ أجابوا
نجوم ما بدت إلا لتخفي كما يعلو على المـاء الحباب
سلوا التاريخ عنها إن أردتـم ففي صفحاته خُط الجواب

بدر الدين الجارم

قائمة المصادر:

- ابن الخطيب، (1973) لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي – القاهرة.
- ارينال، مرثيديس غارثيا (2003). الموريسكيون الأندلسيون، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة.
- أورتيث، دومينغيث (2007) . تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية، القاهرة.
- إيبالثا، ميكيل دى (2005). الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، المشروع القومي للترجمة القاهرة.
- إي غفيرتا، خوسي مونيوت (2010). تاريخ ثورة الموريسكيين، منشورات ليتوغراف، طنجة.
- ايرفنغ، واشنطن(2000). أخبار سقوط غرناطة، مؤسسة الانتشار العربي .
- التميمي، عبد الجليل(2011). تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس، منشورات مركز الدراسات والترجمة.
- التهامي، صبري (2004). روائع أندلسية إسلامية، مشروع القومي للترجمة، القاهرة.
- الجارم بك، على (1944). قصة العرب في اسبانيا، مطبعة المعارف، القاهرة،.
- حتاملة، محمد عبده(2000). الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، دائرة المكتبة الوطنية ، الأردن.
- الذنون، عبد الحكيم (1988)، آفاق غرناطة، دار المعرفة ، دمشق.
- زروق، محمد(1998)، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنيين 16.17، نشر أفريقيا الشرق ، الرباط.
- الزركلي، خير الدين (2002) الأعلام، دار العلم للملايين ، بيروت.
- طه، عبد الواحد(2004). حركة المقاومة العربية الإسلامية، دار المدار الإسلامي، بيروت.
- عبد الرحمن، جمال(2008). دراسات أندلسية وموريسكية، المركز القومي، القاهرة.
- عنان، محمد عبد الله (1997). نهاية الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- فرحات، يوسف شكري(1993). غرناطة في ظل بني الأحمر، دار الجيل، بيروت.

- كارباخال، مارمول(2012). وقائع ثورة الموريسكيين، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- لعناني، مريامه: تاريخ ثورة وعقاب أندلسي مملكة غرناطة، جامعة الأمير عبد القادر.
- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (1997). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- مظهر، علي (1947). محاكم التفتيش، المكتبة العلمية ، القاهرة.
- مندوثا، اورتادودى(2008). حرب غرناطة، المركز القومي للترجمة ،القاهرة.
- مؤلف مجهول (1985). كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبدالحميد، دار النشر العربية ، الدار البيضاء.